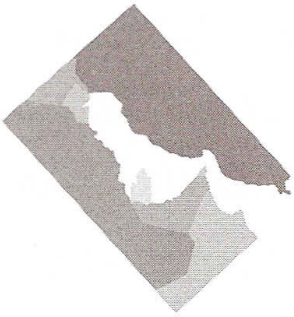


الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية(*)

شبه الباحث في تأسيسه لبحثه «اللغة والكتابة» بأنهما وجهان لعملة واحدة، ومهد لدراسة الوجه الآخر موضوع كتابه بالوجه الأول وهو اللغة، وعرض لجدلية نشأتها التي تمثلت بالرؤية الدينية، وهذه تحمل في طياتها تساؤلا وإشكالات عدة حول اللغة التي جرى التخاطب فيها بين الملائكة والأنبياء والرسل وبين الأنبياء أنفسهم، وادعاء أهل كل ديانة بأنها كانت لغتهم مستندين إلى نصوص دينية. والرؤية الأخرى هي الفلسفية التي قال بها الفيلسوف اليوناني ديموكريتوس Democritus في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي أن اللغة استحدثت بالتواضع والإتقان وارتجال الألفاظ ارتجالا.

قراءة:
د. عبدالعزيز صالح الهلابي
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الملك سعود - الرياض

(*) الكتاب من تأليف: سليمان بن عبدالرحمن الذييب - بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ، ١٤٥ صفحة.

ظلت هاتان النظريتان سـائدتين حتى العصر الحديـث، فظهرت نظريتان جديدتـان هما البيولوجيـة التي تقول بتطور الحـركات والأصوات التعبيرية والعضوية الناجمة من انفعالات الحيوان والإنسان... والنظرية الأنثروبولوجية التي تربط بين وجود علاقة متبادلة بين المصدر الصوتي ومعناه، وكان أساسها اتجاه بعض الباحثين إلى مراقبة ودراسـة الكيفيـة التي ينتهجها الطفل في اكتساب اللغة.

ولاحظ الباحث أن اللغة في سـيرورتها تشابه إلى حد بعيد سيرة الإنسان، فهي تمرض مرضا بسـيطا أو مزمنا، وأحيانا تمر بغيبوبة طويلة جدا، وأعطى أمثلة على هذا التشـابه، منها أن الخـط العربي في مرحلته الأولى كان يفتقد الإعجـام الذي أدخله المسـلمون لاحقا. أما ما يراه مرضـا مزمنا فهو منهج قواعدها واستخدامها للتشكيل. وهذان المثلان ينطبقان على الكتابة وليس على اللغة.أما المثل الذي أعطاه على مرور لغة بغـيبوبة طويلة فهو اللغة العبرية التي دخلت في هذه الغيبوبة منذ منتصف القرن السـادس قبل الميلاد، واسـتمرت في غيبوبتها لمدة تصل إلى أكثر من ألفي عام حتى شرع محبوها منذ ما قبل قرنين أوثلاثة بإنعاشها من غيبوبتها، وتطورت وأصبحت لغة للعلوم معترفا بها على المسـتوى العالمي، بحيث إن عدد الأبحاث العلمية التي كتبت بها يفوق ما كتب باللغة العربية بل يفوق حتى ما كتب باللغة الصينية من الأبحاث.

أما الكتابة فقـد اختـلف القدماء حول سـبب نشـأتها، وانحصر خلافهم وفقا لمواقعـهم في دافعين أحدهما ديني والآخر فلسفي، وشرح المؤلف مبررات كل فريق.

أما رأي المؤلف فيتلخص في قوله: في حين أننا لا نسـتطيع تحديد الدافع وراء اختراع الإنسـان للكتابة، إلا أنه يمكن تفسير دوافع اختراع الكتابة عند

الشعبين الرافدي والمصري، فبالنسبة إلى الشعب الرافدي فإنه يعود إلى الروح الكامنة وراء كل إنجاز لهذا الشعب بما فيه اختراع الكتابة ألا وهي فكرة «الحق»، فمن الحق اشتق الرافدي القديم القانون والقضاء والعدالة، وبسببه تعامل الرافدي القديم بالحساب والعدد. وأغلب النقوش التي تمثل البدايات الأولى للكتابات الرافدية كانت إشارات وكتابات للتعامل، ووسائل لحفظ الحق الاقتصادي والتجاري من عقود وتحديد المقادير والأوزان والمقاييس والبيع والشراء.

لذا لم يكن مستغربا أن تنشأ في سهول سومر الأختام التي كانت رديف البدايات الأولى للكتابة وأهم عوامل تطورها، فالأختام وجدت تحت تأثير فكرة الحق وحفظ الحقوق، وهذا الذي جعل للرافدي القديم الريادة في ابتكار وضع القوانين المكتوبة مثل قوانين أشنونا وغيرها.

ويقدم المؤلف تفسيرا لشكل الخط فيه قدر كبير من الطرافة فيقول: «إن الخط الإسفيني (المسماري) يعبر عن روح الرافدي القديم لتثبيت وجوده الحضاري المهدد دوما، فكما أن أجداده من أهل الرعي والانتجاع يثبتون خيامهم بالأسافين(جمع إسفين)، فالخط يحميه بحفظه للحقوق والقوانين.

أما مبرر اختراع الكتابة لدى المصري القديم فينحصر، حسب رأي المؤلف، في فكرة الروح والخير والبحث عن المعنى والوصول إلى الحكمة. فالحضارة المصرية تتميز بالصبر والأناة وتجسيد المعاني والأفكار الروحية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. وإن انتحالها للخط الرباني المقدس (الهيروغليفي) لم يكن من باب المصادفة، وإنما لتحقيق وسيلة التعبير بالرمز، فهي حضارة المعنى والنظر دوما إلى المعاني الرمزية والجوانب غير المرئية.

أدوات الكتابة

عدَّد المؤلف أدوات الكتابة خلال ثلاثة آلاف السنة الماضية، فأولاها الحجر الذي استخدم لشواهد القبور وأحجار التأسيس، واستخدم كذلك للأمور الشخصية التذكارية والاتفاقات السياسية والمعاهدات والقرارات الرسمية.

ويلي الحجر الطين المشوي على شكل ما يعرف بالرُّقم الطينية. وشرح نوع الطين المستخدم للكتابة، وأن الرقم توضع بعد الكتابة عليها في الشمس لتجف، أما التي تحوي نصوصا مهمة كالاتفاقيات التجارية فتشوى وتصبح كتابا مرقوما محفوظا من التشوه والتلف.

أما ثالثة أدوات الكتابة فهي ورق البردي، ويعود استخدامه إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد. ورابعتها الرق الذي جاء استخدامه في مصر متأخرا قرابة ألف العام عن ورق البردي.

وبعد الدراسة التمهيدية اقتضت المادة العلمية للكتاب تقسيمه إلى ثلاثة فصول، موضوع الفصل الأول هو مراحل الكتابة وعددها ست مراحل، انتقلت فيها الكتابة في مسيرتها التطورية من طور إلى آخر، أولاها مرحلة الرسوم، ثم تلتها مرحلة الكتابة برموز المعاني، ورموز الأصوات وتمثلها الكتابات المصرية القديمة والمسمارية السومرية والكتابتان الأكادية والحثية التصويريتان.

والرسم يمثل الشيء المرسوم نفسه، فرسم البقرة يمثل البقرة وكذلك رسم اليد، لكن مقتضيات الحال والاتصال بين الناس جعلت الرسم يتحول من معناه الحقيقي إلى معنى رمزي، فرسم العصا يعني العصا أو الضرب، ورسم الهلال أو القمر يعني الشهر.

ومرحلة الكتابة المقطعية تمثلها اللهجتان البابلية والآشورية في طورهما الثاني، وهاتان الكتابتان استخدمتا الخط (القلم) المسماري، وقد ظهرت هذه المرحلة بعد أن أخذوا يهتمون بأصوات العلامات المسمارية من دون معانيها التي تعبر عنها الصور في الأصل.

ومرحلة الكتابة شبه المقطعية تمثلها كتابة جُبيل بلبنان التي لم يعدها الدارسون كتابة تصويرية برموز معان وأصوات ومخصصات معان، لكنها في الوقت نفسه لاتحمل خصائص الكتابة المقطعية كاملة.

ومرحلة الكتابة الأبجدية تشمل كل أبجديات العالم القديمة والحثية، وتمتاز عن الكتابات السابقة بأن كل رمز منها يمثل صوتا واحدا منفردا.

ومرحلة الكتابة شبه الأبجدية تمثلها كتابتان هما الإخمينية الفارسية، والمروية، نسبة إلى مدينة مروى عاصمة مملكة كوش في القرن السادس قبل الميلاد، وهي لغة أفريقية تخلو تماما من أي سمات سامية أو هندو – أوروبية.

والفصل الثاني يدرس الكتابات التصويرية والمقطعية وهي السومرية المسمارية، نسبة إلى كلمة لاتينية تعني المسمار أو الإسفين. وأما لغتها فهي اللغة السومرية الخاصة بالشعب الذي برزت حضارته في جنوب بلاد الرافدين، ولعل أقدم الوثائق التي كتبت بالرموز المسمارية السومرية هي وثائق الوركاء وجمدة نصر. وفي الفترة ما بين ٣٥٠٠ –٢٥٠٠ ق.م بدأت هذه الكتابة تتجه إلى المسمارية. وكان هذا التطور واضحا على الألواح (الرقم) الطينية، بينما ظلت التصويرية واضحة إلى درجة كبيرة على المعادن والأحجار. واستمر استخدام الخط المسماري لمدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة، أي حتى منتصف القرن الأول الميلادي.

وإعجاب البشـرية بالإنجاز الحضاري لهذا الشعب لاختراعه الكتابة لا يوازيه - في نظر المؤلف - سوى جهود العلماء الغربيين في محاولاتهم المضنية والشاقة فك حروفها وتفسـيرها. وتبعت هذه الجهود دراسات وأبحاث للعلماء والدارسين من مختلف أنحاء العالم، ونتيجة لهذه الاكتشـافات والأبحاث أخذت المعرفة تنمو باطراد للغة والكتابة المسماريتين.

واسـتمر المؤلف في دراسة لهجات اللغة السومرية، وقسمها إلى عصرين هما العصر السـومري، وتنقسـم لهجاته موضوعيا إلى ثلاث لهجات وفقا لتسلسل زمني، ثم لهجات العصر ما بعد السـومري وهما لهجتان وتقسيمهما موضوعي وزمني.

ويدرس الفصل الثاني كذلك الكتابة الأكادية المسـمارية ولهجاتها. وتسميتها مشـتقة من الأكاديين الذين اسـتوطنوا بلاد الرافدين وجنوبها، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. ويعود الفضل في اسـتخدام مصطلح اللغة أو الكتابة الأكادية إلى رولنسون، وذلك للدلالة على اللغة الثانية التي تضمنتها النصوص الثنائية اللغة المكتشـفة في نينوى. وتنقسم هذه اللغة إلى لهجتين هما اللهجة الأكادية القديمة واللهجة البابلية. وتنقسم اللهجة البابلية إلى عدد من التقسيمات الموضوعية وفق تسلسل زمني.

وخصـص المؤلف المبحث الثالث في الفصل الثاني للكتابات المصرية القديمة. ومما لاحظه المؤلف في خصائص هذه اللغة من خلال الكتابة المنقوشة على النصب والهياكل الحجرية مدى رشـاقة الأشكال المصورة، وانسـياب خطوطها مقارنة بغيرها من الكتابات الأخرى، وأن هذه الكتابة بدأت مثل غيرها بالعلامات والرموز ومخصصـات المعاني، فالعلامات أو الكلمات المصـورة تمثل الألفاظ المعبرة عن الأشياء الملموسـة من غير مراعاة لواقع أصولها، بمعنى أن العلامة تمثل أحيانا

كلمة واحدة أو فكرة ممثلة من كلمات، كما تعبر عن معان أخرى ملموسة واقعية مثل الفعل «طارَ» يمثل بطائر مفرود الجناحين، أو الفعل «أكَلَ» فيمثل برجل يمد يده إلى فمه وهكذا.

ووجد العلماء إمكان تقسيم اللغة المصرية إلى عدة مراحل، وهذه المراحل تخضع لاختلافات موضوعية وتسلسل زمني وهي:

الأولى: عرفوها باسم المصرية القديمة، ويسميها المؤلف: «اللغة الأم».

الثانية: مرحلة اللغة الوسيطة.

الثالثة: اللغة المتأخرة.

أما أنواع الخطوط المصرية فكانت أربعة هي:

١ - الخط الرباني الهيروغليفي.

٢ - الخط الكهنوتي (الهيراطيقي).

٣ - الخط الشعبي (الديموطيقي).

٤ - الخط القبطي.

أما المبحث الرابع والأخير فدرس فيه المؤلف الكتابة الحثية نسبة إلى الشعب الحثي الذي ينتمي إلى الشعوب الهندو- أوروبية، وموطن هذا الشعب كان في آسيا الصغرى. وبلغت الإمبراطورية الحثية شأوا في التقدم الحضاري والسياسي منذ القرن السادس عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إلا أنها استخدمت رسميا نوعين من الخطوط السائدة آنذك، وهما الخط الديني (الهيروغليفي) المعروف في مصر القديمة، والآخر هو الخط المسماري السومري - البابلي، فالأول جرى استخدامه في الكتابات الحجرية، وعلى النصب التذكارية المهمة والأختام، في حين كان الثاني مستخدما للشؤون الحياتية.

وقد خصص المؤلف الفصل الثالث والأخير للأبجدية متمثلة بثلاث كتابات هي: الأبجدية، والكتابة الأوجاريتية، والكتابات الفينيقية.

يقـول المؤلف في مدخل دراسـته للألفبائية: بدأ الإنسـان مزاولته للكتابة عن طريق الرسـوم والرموز، وتدرج في هذا المسـار حتى وصل إلى المقطعية بفضل الأكاديـين، وأصبح من الضـروري تطوير النظام الكتابي إلـى نظام أكثر مرونة وأسهل تعلما، إذ إن الأنظمة السابقة التصويرية والمقطعية لم تكن صعبة فحسب، بل إنها لا تحمل في سماتها ما يجعلها سهلة التعلم والإتقان.

وللوصـول إلى نظام كتابي يكون خاليا من معوقات الأنظمة الكتابية السـابقة لابد من توافر عوامل مهمة هي: المجتمع، الإنسـان، الهـدف. فالمجتمع (أو لنقل البيئـة) الذي توصل إلى الأبجدية عاش في الجهات الغربية من سـورية الكبرى وتحديـدا في أوجاريت وفينيقيا؛ بمعنى آخر بين حضارتين عريقتين لهما دورهما الواضـح والبارز في الجدار الحضاري، وهمـا: الحضارتان الرافدية والمصرية اللتان أثرتا وتأثرتا وتعاملتا سياسـيا وتجاريا وحربيا مع هذه المنطقة وشعوبها. بل إن الأمر أحيانا وصل إلى أن تكون هذه المنطقة مسـرحا للقوى الدولية آنذاك في صراعاتها الحربية. وهكذا أصبح مجتمع هذه المنطقة مجتمعا مختلطا تمتزج فيـه الثقافات المختلفة. فعلى سـبيل المثال كثرت في مملكـة أوجاريت الجاليات الرافدية والمصرية والحثية والحورية. لهذا لم تعد هذه المنطقة مسـرحا للصراع الحربي فقط بل مسـرح للتنافس الحضاري والتجاري. وفي مثل هذه البيئة ذات المجتمع المنفتح يكون التطور الحقيقي.

وبالنسبة إلى الإنسـان فهو انعكاس لمجتمعه يتفاعل معه سلبا أو إيجابا، وإنسان ذلك المجتمع ربما كان الوحيد - آنذاك - المطلع على الثقافات المختلفة. وبذلك يكون لدينا المجتمع (البيئة) والإنسان المؤهلان للتوصل في حالتنا هذه

إلى الأبجدية؛ لكن ما الهدف الذي سعى إليه إنسان بلاد الشام لاختراع الأبجدية ؟

وعلى رغم صعوبة تحديد هدف أو أهداف معينة، فإن هذه الأهداف التي تخطر على البال في مجتمع مختلط مطلع على أحوال العالم حوله آنذاك هو رغبته في إيجاد وسيلة أو نظام كتابي يجعل التعامل التجاري والتواصل الحضاري أكثر سهولة ومرونة لتحقيق التكامل والتمازج الحضاري بين المجتمعات آنذاك.

والسؤال المهم الذي يجب طرحه هو: من أين استقى أصحاب هذا النظام الجديد أبجديتهم هذه ؟ وبعد طرح هذا السؤال وتداوله بين المهتمين والدارسين ظهرت خمس نظريات عرفتها ساحات البحث العلمي، منها بطبيعة الحال ما قبلته الغالبية، نظرا إلى أن أصحابها ومؤيديهم قد أخذوا بالمنهج العلمي المقبول. وهناك نظريات رُفضت من الدارسين نظرا إلى وقوع أصحابها في أخطاء علمية تجعل نظرياتها تفتقد المصداقية.

والنظريتان المعروفتان باسم المسمارية والمصرية هما اللتان لقيتا القبول من الدارسين، في حين أن النظريتين المعروفتين بالكريتية والقبرصية لم تحظيا، لضعفهما، بالقبول من المختصين. وهناك نظرية أخرى عرفت باسم النظرية الحثية لاقت الرفض من المختصين.

والباحثون الذين يذهبون إلى أن تَشَكُّل النظام الألفبائي كان تطورا للمسمارية، لكنهم اختلفوا على أي مرحلة من مراحل المسمارية تطورت، فمنهم من يرى أنها أُخِذت من الخط المسماري الآشوري المُحْدَث بدليل أن الترتيب الأبجدي لبعض أسماء الحروف الألفبائية مشترك بين الفينيقية والبابلية، بينما يرى آخرون أنها اشتقت مباشرة من المسمارية الأكادية. وقد اعترض باحثون على هذين الرأيين لاعتماد أصحابهما على التشابه في الشكل الخارجي، ويرى المعترضون أن

التشابه جاء عن طريق المصادفة. ويرمي «الذييب» بثقله ويدفع اعتراض المعترضين مستندا إلى أن العلاقة بين مستخدمي الرموز المسمارية (الأكادية - البابلية) وأبناء هذه المنطقة موغلة في القدم، فالتأثير والتأثر بينهما حقيقة ثابتة. فمن المعلوم أن هجرة القبائل والشعوب للاستقرار إما من بلاد الرافدين إلى سواحل مغرب الشمس (البحر الأبيض المتوسط) أو العكس من سورية على بلاد الرافدين كما فعل الأموريون والآراميون وغيرهم، وأن المسمارية الأكادية في الفترة البابلية كانت لغة عالمية تجد نصوصها في كل مراكز القوى الدولية. لذا فالتشابه في تصور المؤلف بين الأشكال المسمارية مع الألفبائية لم يكن وليد المصادفة، بدليل أن الأوجاريتية الألفبائية رموزها مسمارية.

والكتابة الألفبائية الثانية هي الأبجدية الأوجاريتية، ومن خصائصها: أنها كتابة سامية كتبت برموز مسمارية، وأنها تحتوي على ٣٠ رمزا، وقد استمرت لمدة قرنين (١٤-١٢ ق.م)، وتقرأ مثل الأكادية من اليسار إلى اليمين، ويفصل بين الكلمات - كما في العربية الجنوبية - بمسمار أصغر من المعتاد وغير عميق.

والكتابة الألفبائية الثالثة هي الأبجدية الفينيقية، وتعد هذه الكتابة أهم إنجازات الفينيقيين التي حفظها التاريخ. والشعب الفينيقي شعب تجاري، ولأن التجارة تقتضي السلوك العملي الذي منه ضبط العمليات التجارية واستثمار الوقت، ولأن الكتابة التصويرية والمقطعية - المتداولة آنذاك - كانت صعبة ومعقدة وتتطلب وقتا وجهدا لأدائها، فقد نجح الفينيقيون في التخلص من هذه العلامات التصويرية واستبدال النظام الأبجدي بها. وعندما بدأ هذا النظام ينتشر في الآفاق تبنى العديد من الشعوب الخط الفينيقي، وأخذت الكتابة الفينيقية تنتقل مع السفن التجارية أينما رست وأبحرت، ولذا فقد وجدت نقوشهم منتشرة في أنحاء متعددة من العالم القديم، بدءا من قبرص وكريت ومالطا وصقلية واليونان وإيطاليا وفرنسا

وبلاد الرافدين ومصر وشمال أفريقيا. ويقسم علماء الكتابات الألفبائية الفينيقية تقسيما موضوعيا وزمنيا إلى ثلاثة خطوط، هي الخط الفينيقي القديم (ق ١٢/١١ ق.م – ٩ ق.م)، والخط الفينيقي المتوسط (ق ٩ ق.م – ٦ ق.م)، والخط الفينيقي المتأخر (ق ٥ ق.م – القرن الأول الميلادي)

الخلاصة

موضوع الكتاب مهم، والمؤلف عالج موضوعاته باقتدار، ونجح في تبسيط مفاهيمه وأفكاره ومعلوماته حتى يُمَكّن غير المختص من استيعابها، وحضور المؤلف ملحوظ في كل الكتاب بدءا من عنوانه حتى آخر فقراته، مدليا بآرائه أو شارحا آراء الباحثين الآخرين، ومعطيا خلفيات لكثير من قضاياه حتى يجعل القارئ في سياق الموضوع.